إفريقيا.. جرأة قول الحقيقة

تتعدد وتتباين، وأحياناً تتناقض، الآراء حول القارّة الإفريقية، وحقيقة وضعها اليوم، وهل هي أقلعت بالفعل، كما تردد آراء الكثير من المحللين والمعلّقين و«الخبراء» وتكرره وسائل الإعلام. أم أنها كانت ولاتزال أحد أكثر مناطق العالم بؤساً، وأن مستقبلها غائم ويثير الكثير من الأسئلة، بل والشكوك، كما يردد آخرون. برنار لوغان، الأستاذ الجامعي والأستاذ في الكليّة الحربية الفرنسية والمتخصص بالقارّة الإفريقية، هو من فئة «المشككين» فيما يقال، ويتردد عن «إقلاع» القارّة الإفريقية. ويكرّس كتابه الأخير لتقديم صورة القارّة كما يراها ويعرفها عن قرب منذ سنوات طويلة. ويبدو هذا «التشكيك» في عنوان الكتاب نفسه، ومفاده:«جرأة قول الحقيقة لإفريقيا».

ملف معقد

يقول لوغان، منذ البداية، إنه يريد أن يقول الحقيقة للأفارقة. هذا مع إدراكه العميق أنه ملف في غاية التعقيد والحساسية، ويثير الكثير من النقاشات والجدل. فهو يخص العلاقات بين إفريقيا «التي ترى نفسها كضحيّة» وأوروبا التي تعيش «الإحساس بالذنب» حيال القارّة الإفريقية.

اقتصاد متردٍ وتقهقر

«قول الجرأة » الأول الذي يؤكّد عليه مؤلف الكتاب، أن إفريقيا لم تتطوّر فحسب، بل إن بلدان جنوب الصحراء، كما يجري توصيف القارّة الإفريقية، تقهقرت وتراجع اقتصادها إلى ما كان عليه قبل عدّة عقود. وذلك على عكس ما يقوله كُثر، بأن إجمالي الإنتاج الداخلي الإفريقي «حقق تقدما كبيرا» وأن«الطبقة الوسطى الإفريقية هي في طور الازدهار».

المؤلف في سطور

برنار لوغان.
أستاذ جامعي،
يعمل أستاذاً في الكليّة الحربية الفرنسية. أخصائي بالقارّة الإفريقية.
وهو أحد الخبراء لدى المحكمة الجنائية الدولية حول مذابح رواندة في صيف عام 1994. ويصدر مجلّة «إفريقيا الحقيقية» الألكترونية.

الكتاب: جرأة قول الحقيقة لإفريقيا

الصفحات: 224 صفحة

الناشر: لو روشيه- باريس - 2016

القطع: المتوسط

تنمية وديمقراطية

يوضح الباحث الفرنسي أن القوى الخارجية تحاول أن تقدّم «الحلول المناسبة» لنهوض إفريقيا. وفي مقدّمة تلك القوى: القارّة الأوروبية التي تنتمي إليها القوى الاستعمارية السابقة. فالأوروبيون يعبّرون بأشكال مختلفة، بأنهم مستعدون لتحمّل مسؤولية تنمية إفريقيا وفرض الديمقراطية عليها، والعمل على إعادة ترسيم الحدود بين بلدانها.

إرث استعماري

من بين جملة المسائل التي يؤكّد عليها برنار لوغان، أن الغالبية العظمى من الجامعيين والصحفيين وأصحاب القرار الأوروبيين، تعتمد على مجموعة من المعطيات التي «إن لم تكن خاطئة»، هي على الأقل «مقنّعة بطابع إيديولوجي». ويرى في هذا نوعاً من«الإرث الاستعماري». لكنه يشير بالمقابل أن المسؤولية تقع على عاتق الأفارقة.

18

يحدد المؤلف القول، إن إفريقيا اليوم لاتزال تعرف عملياً نمط العلاقات الاقتصادية والاجتماعية نفسه، الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر. ذلك أن الغالبية العظمى من الأفارقة يعيشون على الكفاف المطلوب للبقاء.

4

أسباب

يحدد المؤلف في تحليلاته، أربعة أسباب رئيسية لفشل إفريقيا في النهوض والتنمية.

- السبب الأول: أنها«أعطت الأولوية للاقتصاد بدلاً من حلّ المسائل السياسية المؤسساتية والاجتماعية».
- وثانياً: رفض مجتمعاتها، قبول الاختلاف.
- وثالثاً: التبني القسري للديمقراطية المفروضة علي إفريقيا.

ورابعاً وأخيراً: الزيادة السكانية التي ربما تكون قاتلة.

3 أقسام

تتوزع مواد الكتاب بين ثلاثة أقسام رئيسية، يحمل الأول منها عنوان:

- « مع ذلك انطلقت إفريقيا»، ويناقش المؤلف فيه ما يسميه أساطير إجمالي الإنتاج الداخلي وكذبة تراجع الفقر، والهجرة المنتقاة، ثم سؤال:«هل يمكن للبترول أن ينقذ إفريقيا؟».
- والقسم الثاني يخص «الحلول السيئة، الجيّدة» ويناقش الفكرة الطوباوية ـ يوتوبيا ـ إعادة ترسيم الحدود الإفريقية، ومجزرة رواندة.
- والقسم الثالث والأخير عنوانه «ليس هناك حل بدون حقيقة». ويبحث فيه لوغان المسألة الديموغرافية في إفريقيا وإعادة بناء الدولة انطلاقاً من الواقع الإثني. وأما الصفحات الأخيرة من الكتاب فمكرّسة للبحث في كيفية «تحرير إفريقيا من عقدّة الضحية» و«تحرير أوروبا من عقدة الجاني».

نموذج مستورد

الأفكار المتعلّقة بالتطور في المجتمعات الإفريقية، والتشجيع على الاستقرار في عملية إعادة ترسيم الحدود، هي بالتأكيد«أفكار جيّدة» بمضمونها وجوهرها، كما يشرح مؤلف الكتاب، ولكنها«سيئة» بالنسبة لإفريقيا. ذلك أنها لا تأخذ في اعتبارها خصوصيات البلدان الإفريقية وتريد، على عجالة، فرض نموذج «مستورد»، غريب عن ثقافتها.

رأي ودليل

يرى مؤلف الكتاب، أن مقولة نهب المستعمرين للقارة الإفريقية هي أقرب للأساطير منه إلى الواقع. الدليل الذي يقدّمه هو«جنوب إفريقيا» التي تعيش اليوم «على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي»، حالة أسوأ بكثير مما كانت عليه في ظل نظام التمييز العنصري «الابرتهايد».

مقومات تقدم

ما يؤكّد عليه المؤلف باستمرار، هو أن إفريقيا تملك مقومات النجاح والتقدّم فهي تمتلك «أراضٍ شاسعة هي من الأكثر خصوبة في العالم»، ولديها ثروات معدنية وموارد طاقة استثنائية وهي غنيّة بالثروة البشرية..الخ. لكن بالمقابل يرى أنه عليها أن تشرع دون إبطاء، في اتخاذ «عدة إجراءات «ملحّة».

القرش الإميركي والصيني

إجراءات واجبة، وملحة، يجد لوغان الأفارقة مطالبين بها على وجه السرعة، بغرض ردع التدهور الاجتماعي والاقتصادي. ومنها: السيطرة سريعاً على زيادة عدد سكان القارّة وإلاّ فالكارثة أكيدة، على القارّة أن تأخذ استقلالها الفكري وتتوقف عن أن تكون حقل تجارب للإيديولوجيات التي أنتجتها العقول الغربية، على الأفارقة أن لا يتركوا أنفسهم فريسة لأسماك القرش الأميركية والصينية.

أصل الشرور

ويصل المؤلف في المحصّلة إلى طرح السؤال التالي: أم يحن الوقت الذي يتحمّل فيه الأفارقة مسؤولية مصيرهم بأنفسهم، فيكفوا عن انتظار أن يأتيهم كل شيء من الخارج؟ وفي وجه عام، نجد أن الكتاب ـ صرخة موجّهة للأفارقة وللأوروبيين ـ شركاء اليوم ومستعمري الأمس القريب ـ من أجل البحث الجدي، عن أصل الشرور التي تعاني منها القارّة السمراء.

فردوس مزعوم

يطرح لوغان في إشكالية البحث، عدداً من الأسئلة، التي لها، هي الأخرى، دلالاتها الواضحة على المنحى الذي يتجه صوبه تفكيره. وهي أسئلة تتفرّع عن السؤال الجوهري التالي أو تدور في أفقه: هل سنستمرّ ـ يقصد الأوروبيين ـ في الكذب على إفريقيا عندما نرى شبابها يدفعهم البؤس، وتحركهم الرغبة في التخلّص من أوضاع هم أوّل ضحاياها، فيجازفون بحياتهم في مغامرة العبور القاتلة في الكثير من الأحيان، إلى «الفردوس» الأوروبي المزعوم؟

إعداد: محمد مخلوف - غرافيك: أسيل الخليلي